

مكتبة مصر  
تقديم  
مجموعة كتب وصورة

# أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ

إعداد : أمير سعيد السبحار

رسوم : عبد الرحمن بكر



الناشر  
مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صديق بالعجالة

لا تزال مكة على حالها ، إصراراً على الباطل ، وصداً عن سبيل  
الله ، وعن المسجد الحرام ، ومعارضة للرَّسول الكريم وأتباعه ، دون  
سبب معقول ، وإنما لمجرد العناد القاتل ، والعقيدة الموروثة ..  
ولا يزال المسلمون قلة ، تخفى أمام قوة الكافرين السَّاحقة ،  
وخاصةً إذا انفرد مسلم في طريق من طرق مكة ، وشعب من  
شعابها .. إنه يناله الكثير من التهكم والإهانة والإحغار ..  
ولا يزال القرآن تنزل آياته ، واضحات بينات ، تفرق بين الحق  
والباطل ، في كل مناسبة من المناسبات ، فتكون الآية سجلاً للحادثة ،





وقاعدة للتقنين والقياس ، واستنباط الأحكام ، وترسخ في النفس رسوخاً فيه قداسة الواقع ، وسمو الغاية ، ونبل المقصد ..

ولم يسمع الكافرون آيات القرآن من أحد سوى الرسول الكريم ، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، ذلك أنه أمر بإعلان ذلك وعدم كتمانها ، لا يخشى أحداً ، كانوا من كان ، ولا يرهب مخلوقاً . وإن الله باري السم ، ورب الكائنات ، قد عصمه من الناس ، فلا تضيره حيلهم ، ولا تصل إليه مكابذهم ، ولا تنفذ إليه سيئاتهم المريثة ، وغذواهم الشديد ..

أجل فمرحبا بالجهد والعناء ، والألم والشقاء ، والهمم القتال ، والظلم المبد .. مرحبا بهذا كله في سبيل تحقيق الأماني الجسام ، والآمال العظام .. في سبيل تبليغ الرسالة ، والقضاء على هذه الأهوال التي تقاسيها البشرية الطالمة في الظلمات ، والسابعة في أجوار القضاء ، حائرة تالفة ، لا تدرى إلى أين تنج ، ولا أين تسير .. مرحبا بهذا كله ما دامت قد اتجهت إليه بعض الأنظار ، وأصاحت إليه بعض الآذان ، ومالت إليه بعض القلوب .. إن أول الغيث قطرة ثم ينهمر .. وإن سنة الكون التدرج ، فلا بد من الصبر ، فهو حلل العقد ، ومفتاح مغاليق الأمور ..

.....

ولكن أصحاب رسول الله ، لم يرضهم هذا الإسرار بالقرآن ،

وإخفاء قراءته .. إنه النور ، فيجب أن يُعَمَّ كلُّ رَجْوٍ من أرجاء مكة ،  
لا بد أن يزرُعَ شمساً مُشرقةً يعُمُّ ضياؤها هؤلاء ، ويغمرهم ، ويأخذُ  
عليهم كلَّ سبيل ..

إنَّ عليهم واجباً لا بد أن يقوموا بأدائه على خير وجه ، وإنَّ الجبنَ  
والخوفَ والوجل ، لا يدفعُ أبداً قضاءً نافذاً ، أو شيئاً مقدراً ، وقاعدةً  
للتقنين والقياس ، واستبطاء الأحكام ، وتوسُّعُ في النفسِ رُسوخاً فيه  
قداسةُ الواقع ، وسموُ الغاية ، ونيلُ المقصد ..

ولم يسمع الكافرون آيات القرآن من أحدٍ سوى الرسول الكريم ،  
سيدنا محمد بن عبد الله ، ذلك أنه أمر بإعلان ذلك وعدم كتمانِه ، فما  
الداعي إذن لهذا التكرُّص على الأعقاب ، والهروب من الميدان ، وإيثارِ  
الراحة والعافية ؟

لا بد أن يقوموا بعملٍ منتج ، ولو كان فيه مجازفةٌ بالنفس والمالِ  
والروح ، وفي الإقدام حياة ، وفي الشجاعة خلود ..

وهكذا اجتمع شملُ الصحابة في ناحية من نواحي مكة ، وقد  
اعتزموا أمراً .. ترى ماذا كان يجولُ في نفس كلِّ منهم ، ويختلجُ في  
قلبه ، من خواطر ومشاهد ، ومغامرات ؟

وعرضت آراء ، وقربل بعضها بالرفض ، وبعضها بالقبول ..  
واتجهوا أخيراً نحو هدفٍ واحد ، ووجهةٍ واحدة ، فقال بعضهم  
لبعض ، في صرامة وقوة :



- واللّٰهُ مَا سَمِعَتْ قَرِيشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجَهَرُ بِهِ قَط .

وأجاب كلُّ فردٍ منهم على هذا السُّؤال في نفسه ، فهم يعرفون هذا ولا يجهلونه ، يعرفون أنّ الرُّسولَ الكريمَ وحده هو الذي يجهرُ بالقرآنِ دون سواه ، ولم يَطلُبْ بهمُ التَّكْثِيرُ ، إذ ارتفع الصَّوتُ مرّةً أخرى متسائلاً :

- فَمَنْ مِنَّا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُسْمَعَ قَرِيشَ الْقُرْآنَ ؟

واختبر كلُّ منهم نفسه ، ووضعها موضعَ الإمتحان ، فمنهم من أحسَّ بالخوفِ والوجل ، والتَّكْوِصِ والرُّهبة ، وتصورَ قريشاً كالأسدِ الهائجِ الثَّالِرِ في بقعةٍ وغيظ ، والقرآنَ يشرُّ حفيظتها ، ويوغرُّ صدورَها ، ويطعنُها في الصُّمَمِ طعناتٍ قويّةٍ مُتتابعَةٍ ، لا تقومُ بعدها إلا صرغى لا تستقرُّ على حال ..

وما أقسى حال الإنسان عندما يُطعنُ في الصُّمَمِ ، في



عقيدته وإيمانه ، ودينه وبقينه ، فيهوى متخاذلاً أمام الأدلة القويّة ،  
والبراهين الواضحة ، والحجج الدامغة .. !!

ومنهم من شعر بالعزّة والقوّة ، والمنعة والحصانة الربانيّة ، وإنّ الجرأة هي  
كلّ شيء ، والشجاعة يمضى بها الإنسان خالداً على الدّهر ، باقياً على  
الأيام .. وكانت هذه عقيدة عبد الله بن مسعود ، فهف في عزم وقوّة قائلاً :  
- أنا .. أنا أقرأ القرآن حتّى يسمعه منهم من يتسرّ له سماعه ،  
ويُنصت له منهم من يُمكنه الإنصات له .. أنا أتحمّ هذه الحصون  
الخواء ، وأهاجم هذه العقائد الهباء .. أنا الذي أحمل المشعل ، وأتقدّم به  
في جرأة ، وشجاعة وإقدام ، ولن ألقى به عن طواعية ورضا ، ولكنّي





سأجعل حياتي فداءً له ، وأهبُ رُوحِي دفاعاً عنه .. أنا الذي سيهدمُ عليهم هذه الحصون الزائفة ، ويزلزلُ تلك البيوت الواجفة ، ويطعنُ تلك القلوب بنصال القرآن ، حتى تسيل دماؤها ، فتخلص مما علق بها من كُدره ، وتمشي إلى الله مؤمنة مسلمة ، وتأتي إلى الحق صاغرة مستسلمة .. أنا الذي سيعلنُ القرآن نوراً يهدي القلوب الخيرة ، ويرشد الأئمة الضالة ، ويكونُ له في رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة صالحة ، وأسوة حسنة .. أنا الذي سأكفيكم هذه المؤنة فلا تبتسوا ، ويُعلنُ كتابُ الله في الآفاق فلا تحزنوا .

وصمت عبدُ الله بن مسعود قليلاً ، ولكن قوله لم يقع من صحابة الرسول الكريم موقع القول ، فهم يعلمون أن عبد الله جرىء في الحق بلا مراء ، ولكنه سيكون بهذا عرضة لإهانات المشركين ، وهدفاً لبائهم وأغراضهم ، يؤلمونه ، ويضربونه ، ويقتلون عليه .. لأنه بينهم ليس له عشيرة تمنعه ، أو أسرة قوية تدافع عنه .. إنهم يريدون رجلاً آخر من ذوى العشائر القوية ، التي يرهبها المشركون ، ويخشها الكافرون ، فباذا أعلن القرآن ، خافوا أن يؤذوه فتأثر له عشيرته ، وتدافع عنه قبيلته .. ولهذا قالوا جميعاً لعبدِ الله في عطف وإشفاق :

- إنا نخشاهم عليك ! سيؤلمونك ويؤذونك ، ويفتكون بك ، لأنهم  
سيجدونك وحيداً بلا عشيرة ، فريداً بدون قبيلة ... إنما نريدُ رجلاً له  
عشيرة ، يمنعونه من القوم إن أرادوه ..  
وعزَّ على عبد الله بن مسعود أن يرى فيه المسلمون هذا الرأى ،  
فهو وإن كان وحيداً إلا أنه قوى بالله ، وهل العشيرة القويَّة كلُّ شيء ؟  
لا .. فكم من عشائر وفيرة العدد ، عظيمة الممدد ، هي عند الله  
سعيقة ذليلة ، لا يُقام لها وزن ، ولا يعزُّ لها جانب .. وما دام المرء في  
حفظ الله ورعايته ، وعطفه وصيانيه ، فلن تصل إليه قوى الشر وإن





اجتمعت عليه ، وتظاهرت ضده .. ولهذا جاز في عزم وصراحة ، وقوة وإيمان :

- دعوني ، فإن الله سيمتني !

وكانت هذه اللهجة قاطعة لكل حجة ، قاضية على كل اعراض ، فكُتبت الأفواه ، وصمتت الألسن ، واستشعر كل واحد من صحابة الرسول الكريم عظمة الله ، وقوة الله ، وكأنما كان قد نسي هذا حينما ركن إلى قوة العشرة .. !!

• • •

وخلا عبد الله بن مسعود بنفسه ، وعلم أنه جازف باعتزائه هذا الأمر ، وقطع على نفسه الموائيق والعهود ليقوم بأدائه .. لقد تصور ماذا سيفعل معه المشركون حينما يباغتهم بقراءة القرآن ويطعنهم في عقائدهم التي إليها يركنون ، وبها يدينون ويعتزون ، ولكنه تذكر أن نفسه ليست خالصة له ، وأن روحه ليست ملكه ، وأنه قد باع هذا لله ، فحين حق الله عليه أن يقوم على نشر دينه ، وإعلان كتابه ، وأن ينال الغاية التي يبتغها كل مسلم ، ويرجوها كل مؤمن ، ألا وهي الاستشهاد في سبيل الله ، وما أحلاه .. !

لن يواجه بعد الآن ، ولن يدع للشيطان فرصة يصل منها إلى قلبه يوسوس له ، ويغريه بمخالف الأبطال والحجج ، ليصده عن سبيل الله .. لقد وعد أن يجاهد ، فليمض في الطريق شجاعا ، غير هيب

ولا وجل ، وما أَرَذَلَ الحياةَ هادئةً ساكنةً بغيرِ سعيٍ ولا كدٍّ ولا جهادٍ .  
إنَّ الجهادَ في أيِّ صورةٍ من صورِهِ ، ووضعٍ من أوضاعِهِ بُغيةً كلِّ  
مسلمٍ ، وأمنيةً كلِّ مؤمنٍ .. إنَّه الموجاتُ المتدفقةُ السريعةُ التي تَبْعَثُ في  
البحارِ والأنهارِ حياةً وقوةً ، وتجذِّدُ مياهاها ، فيصفو وِرْدُها ، ولولا هذه  
الموجاتُ لظَلَّ الماءُ راكداً لا يتحركُ ، ساكناً لا يترقُّ ..

• • •

وغدا عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ حتى أتى المقامَ في الضُّحى ، وكانتِ  
الشمسُ قد نَشَرَتِ ألوانها على مكَّةَ ، جبالها وأوديتها ، سهلها  
وحَزَنها ، ودبَّتِ الحركةُ في نواحيها ، واعتَلَّتِ الشَّعَابُ والوهادُ  
والسُّهولُ ، بالرُّعَاةِ من كلِّ حذبٍ وصوبٍ ، يسوقون قطعانَ الماشيةِ ،  
ويرعون الكَلأَ المُباحَ ..

وكانت قريشٌ في أنديةِها ، بينما قام عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ عندَ المقامِ  
وأخذ يقرأ ، في وضوحٍ نيرةٍ ، ورقةٍ قلبٍ ، وخشوعٍ فؤادٍ ، وإيمانٍ  
عميقٍ باللَّهِ منزَّلِ الكتابِ :

.. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ارتفع هذا  
الصَّوتُ مجدِّلاً في البيتِ الحرامِ .. ولم يكن للمشركين عهدٌ به ،  
فكأنما زلزلوا زلزلاً شديداً ، فاضطربت نفوسُهم ، وترايلت  
أعضاؤهم ، وأخذوا من كلِّ مكانٍ .. إنَّه صوتٌ جديدٌ ، غيرُ صوتِ  
محمَّدٍ .. فمَن يكونُ صاحبُ هذا الصَّوتِ ؟ وكيف وجدَ الجُرْأَةُ من



نفسه ففعل ما فعل ؟ أمكذا يُستباح حمامهم ، ويجزؤ المسلمون عليهم  
إلى هذا الحد ؟ لا لا .. إن هذا كثير .. يجب أن يخفّت هذا الصّوت  
سريعاً ، لنلا يسمعه أحد .. إنه خطرٌ على عقائدهم .. على الشيوخ  
والشبان ، والصّبية .. إن هذا الكلام خلاوة تأخذ بجميع القلب ،  
وتشبع نهم الرّوح .. بسم الله .. الاستعانة بالله الرّحمن المتفضّل بجليل  
النعم وعظيّمها .. والرّحيم المتفضّل بدقيق النعم وخفيّها .. إنهم  
ليفهمون هذا الكلام فهماً دقيقاً ، ويعرفون أنه غريبٌ عجيب ، في  
أرقى درجة من درجات البلاغة والقصاحة .. إنهم يفهمون أسرار



البيان ، ويُدركون دقائق التعبير .. إنَّ هذا الكلام لا يقوله بشر ، وإنه من عند الله .. المسيطر على الكون ، وخالق الناس .

هذا جميل وعظيم ، ولكن أين يكون هذا الصوت يسرى بهذا الكلام البليغ ، فيكون خطراً على عقائدهم ودياناتهم ؟ لا لا .. إنهم لابد أن يحافظوا على مكائدهم ، كما ورثوها عن الآباء والأجداد ، وليخضت صوت الحق والعدل ، ما دام سيؤدى بهم إلى طريق محمد بن عبد الله . وكان عبد الله بن مسعود قد استقبل القبلة ، ومضى يقرأ سورة الرحمن ، دون اهتمام بالمشركون والكافرين ، أو آبه بما سيناله منهم دون ريب .. لقد شعر بهم يُنصتون إليه ومنع بعضهم يقول :

— ماذا قال ابن أم عبد ؟ .

فاجاب البعض الآخر في حثي وغيظ إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . وكأنما كانت هذه العبارة القباب أشعل الفيل ، فانفجرت القبلة وثار المشركون وهاجوا ، واضطرب خيلهم ، وأقبلوا على عبد الله ابن مسعود يوسعونه ضرباً ولكما ، ووكراً وصفعا ، في وجهه وصدره . ومع هذا لم ينصت صوت عبد الله ، وإنما ظل كما هو ، يقرأ سورة الرحمن ، حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ منها ، ولم يغد في مكتبته أن يتابع القراءة ، لأنهم حالوا بينه وبينها ، واتجه إلى أصحابه ، وقد أثرت في وجهه هذه اللطمات ، وتلك الصفعات ، وبدت نورانية ، كأنما هي وسام الشرف الذي يناله الجندي المخلص في ميدان القتال !!!



لقد أفلح عبدُ الله في مهمته أيما فلاح .. إذ أن آياتِ السَّورةِ  
 علقت بأذان هؤلاء المشركين ، وظلَّت تطاردُهم في كلِّ مكان ،  
 وتلاحقُهم أينما حلُّوا وساروا .. لقد كانت تذكِّرهم بآياتِ الله ونعمه ،  
 ودقائق صنعه وعظيم آلائه . وجزيل فضله ، فالله أنزل القرآن ، وليس  
 من كلام محمدٍ كما يدَّعون ، وأنه خلق الإنسان ، وأنشأه من العدم ،  
 وليست الطَّبيعة هي التي أوجدته كما يعتقد كثيرٌ منهم ، ثم لا يدينون  
 بهت ولا جزاء . وما أعظم نعمة اليان ، امتاز بها الإنسان ، عن بقية  
 الحيوان ، فوهبه الله العقلَ المفكِّر ، واللسانَ الناطق ، فاستحقَّ بهذا أن  
 يُكرَّم ويعظم ، وينعم يوم القيامة إذا أتجه إلى الخير ، وسار كما أمر الله .



وهكذا أخذت هذه المعاني تنثال انقيالاً في قلوب المشركين الذين  
سمِعوا هذه الآيات البينات من عبد الله ، فأحسوا صداها يردُّد في  
نفوسهم في قوَّة وإحاف ، وخشية ورهبة ، وخاصةً عندما يخلو كلُّ  
منهم بنفسه ، ويتحرَّر من القيود ويسبح في هذا الجوِّ السَّامى ، من  
الروحانيَّة الفكرية الجليلة . فلا يجد مناصاً من التسليم والخضوع ..  
ولكنه سرعان ما يراجع ويخشى أن يراه أحد ، فيدرك ما يفكر فيه ،  
ويعلم ما يقول في نفسه من الآراء والأفكار .





هل انصرف هؤلاء عن الحق ، عن عقيدة وإيمان ؟ كلا ، لقد انصرفوا عن الحق ، وهم يعلمون أنه الحق ، ويدركون أن الخير في تفهم هذه المعاني السامية ، والأغراض النبيلة ، ولكنهم يدركون كذلك أن في هذا زوال سيادتهم ، ومحو سلطانهم ، وأنهم سيمضون مع الضعفاء من المسلمين سواء ، لأن هذا الذين الجديد ، لا يأتيه بالظواهر ، ولا يقيم وزن هذه الأغراض الزائلة ، ولا يقبل عملاً لغير الله .

وعاد عبد الله بن مسعود إلى رفاقه وأصحابه ، وهو على هذه الحال من الشعثة ، والاضطراب .. الاضطراب الظاهري ، أما عواطفه وأحاسيسه فهادئة وادعة ، مطمئنة آمنة .. وكيف لا يكون كذلك وقد أوفى بما عاهد عليه الله ؟ إن أسمى ما يريه أن يقوم بما وجب عليه ، وأن يؤدي ما التزمه ، على وجهه الأكمل ، أو بالحري كما وفقه الله لأدائه ، فما يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ورأى رفاقه أثر الضرب في وجهه ، وأنه كان فريسة سائغة لهؤلاء الطغاة ، وماذا يفعل القرد مهما بلغ من الجراءة والشجاعة والإقدام . أمام عدد وفير متحفز للطعن والضرب والنصال ؟

لقد ارتفع عبد الله في أعين رفاقه آلاف المرات عن ذي قبل وقال الأصحاب في عطف وحنان :

— هذا الذي خَشِينَا عَلَيْكَ !

ولكن عبد الله ، لم ير في هذا ما يستحق العطف والرثاء ، وأنه الآن أصبح خيراً بالكافرين ، وأنه اليوم أجراً عليهم من ذي قبل ، شأن الإنسان يحشى شيئاً ، لأنه لم يعرفه وبغيره ، فإذا عرفه ، اجسروا عليه ، ولم يغذ يحشاه ، ولهذا قال عبد الله في صرامة :

.. ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن .. !

وصمت قليلاً ثم أردف :

.. ولئن شتم لأعدائهم بمثلها غداً ١٩

فقالوا وقد أدركهم شيء من الخوف عليه ، والإشفاق به ، خشية أن ينكل به المشركون :

.. لا ، حسبك ، قد سمعتهم ما يكرهون ..

وخضع عبد الله لرغبة الرفاق ..

